المنشآت الحربية الحمادية (الجزائر)
(٣٠٨-٥٤٧هـ/١٠٠٧-١١٥٢م)

د. موسى هيصام•

مقدمة:

الدولة الحمادية (الجزائر) من الدول الإسلامية المستقلة التي قامت في المغرب الأوسط، منفصلة عن الدولة الزيرية(٣٦١-٥٤٣هـ/٩٧٢-١١٤٨م).

ينسب الحماديون إلى مؤسس دولتهم، حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي(ت.٤١٩هـ/١٠٢٨م)، الذي تمكن سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، من إرساء قواعد القلعة التي حملت اسمه، وورد ذكرها في أغلب مصنفات الرحالة والمؤرخين، بتسميات مختلفة منها: " قلعة حماد"، " قلعة بني حماد"،" قلعة أبي طويل"، استنادا إلى الاستحكامات الحربية التي تميزت بها، وبموقعها الهام المحاذي لسفح جبل " تاقربوست" المطل على الفضاء الواسع لسهل الحضنة الشهير، الذي يعد بداية الهضاب العليا المفتوحة بدورها على صحراء مترامية الأطراف هي الصحراء الجزائرية الكبرى.

فبعد تجربة الدولة الرستمية التي أسسها "عبد الرحمن بن رستم"، والتي استقلت بحكم المغرب الأوسط ما بين(١٤٤-٢٩٦هـ/٧٦١-٩٠٩م). كانت التجربة الثانية أكبر وأكثر فعالية وتأثيرا، والمتمثلة في الدولة الحمادية التي ذاع صيتها حينها، بفضل مكانتها السياسية والعسكرية، وتأثيرها الاقتصادي، وإشعاعها الحضاري، إن على مستوى عاصمتها الأولى" القلعة" ما بين ٣٩٨-٤٦١هـ/١٠٠٧-١٠٦٨م، أو عاصمتها الثانية الناصرية (بجاية) ما بين ٤٦١-٥٤٧هـ/٩٧١-١١٥٢م، فقد وصف الرحالة البكري(ت.٤٨٧هـ/١٠٩٤م) مكانتها المتميزة بقوله:" تمصرت - القلعة- عند خراب القيروان..وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز، ومصر والشام، وسائر بلاد المغرب..".

ودعمه الإدريسي(ت.٥٦٠هـ/١١٦٤م) بما ذهب إليه، بأن جعلها " قاعدة المغرب الأوسط"، وانهاها المؤرخ المراكشي(ت.٦٤٧هـ/١٢٥٠م) مبرزا ما بلغه الحماديون في فترة قوتهم:" قلعة بني حماد .. هي معقل صنهاجة الأعظم، وحرزهم الأمنع، فيها نشأ ملكهم، ومنها انبعث أمرهم".

يوعز تأسيس الدول المستقلة بالمغرب الإسلامي وطبعها بالطابع العسكري، إلى ظروف وعوامل جوهرية، مثلت فيها التركيبة القبلية، منطلقا لنجاح العديد من الحركات السياسية، والدعوات المذهبية، وما رافقها من جهود عسكرية واقتصادية وفكرية، لتثبيت تلك الكيانات، والمحافظة على ديمومتها.

• جامعة" الدكتور يحيى فارس" بالمدية - الجزائر

فقد برزت العصبية الصنهاجية بفرعها الشمالي، انطلاقا من التفوق العسكري لتأسيس المدينة التي تحولت إلى دولة، في محاولة لإحداث التوازنات السياسية والقبلية في المنطقة، عقب صعود غريمتها كتامة شمالا، وزناتة غربا.

فالأولى كانت النواة الصلبة لعصبية الدولة الفاطمية التي غرس بذرتها كل من الداعيين الشيعيين الإسماعليين: أبا سفيان والحلواني، ومكن لها أبو عبد الله الشيعي انطلاقا من قلعة ايكجان ـ بضواحي سطيف ـ وتربع على عرشها عبيد الله المهدي، أول إمام فاطمي سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م.

في حين ناصرت الثانية الدولة الأموية في الأندلس، استنادا إلى طموحاتها السياسية، وقناعاتها المذهبية، إذ اعتبرت القبيلة نفسها مستهدفة لاعتبارات جغرافية، فقد عدت مضاربها ممرا حتميا للجيش الفاطمي في طريقه لتحقيق مشروع الدولة التوسعي لضم العدوتين لممتلكاتها، ومناطق نفوذها، ابتداء من العقد الأول من القرن الرابع الهجري(١٠م).

بين هذا وذاك التأم شمل صنهاجة بزعامة رجل جمع خصالا عدة، أهلته لقيادة القبيلة للقيام بأدوار متميزة على مدار قرنين ونصف من الزمن تقريبا، أي من سنة ٣٢٤م/٩٣٥م تاريخ تأسيس مدينة آشير العاصمة الأولى للدولة الزيرية، وانتهاء بسقوط عاصمتهم المهدية بتونس على يد النورمان سنة٥٤٣هـ/١١٤٨م، والناصرية(بجاية) العاصمة الثانية للدولة الحمادية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م على يد الموحدين.

هذه التحديات وغيرها التي واجهت المغرب الأوسط، إن على مستوى الصراع بين الكيانات السياسية الكبرى والصغرى، وكذا الصراع بين العصبيات القبلية، أو بين بطون القبيلة الواحدة، جعل العسكرة هي الميزة الغالبة التي طبعت واقع الأحداث خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين (١٠- ١٢م)، فكانت الدولة الحمادية المستقلة عن الدولة الزيرية رسميا سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م بقاعدتيها العسكريتين "قلعة بني حماد"، عاصمتها الأولى، والناصرية عاصمتها الثانية.

فكان التركيز من جانبها كغيرها من الدول التي عاصرتها نحو استحداث المنشآت الحربية الدفاعية والهجومية، في شكل مدن، وقلاع، وحصون، وأسوار، باعتبارها وسائل جوهرية استخدمت لضمان المحافظة على سيادة الدولة، استمرار وجودها، وحماية ساكنيها، خاصة الدولة الحمادية كونها ولدت من رحم الصراع داخل البيت القبلي الصنهاجي الواحد، ليتطور إلى تمدد وتوسع على حساب قوى أخرى، بحكم الجوار أولا، أو الصراع المذهبي ثانيا.

وانطلاقا من إشكالية العسكرة التي طبعت الدولة في هياكلها وتوجهاته، وحتى في إنشاءاتها العمرانية، اتجهت لمناقشتها، وتفكيك عناصرها وفق مايلي:

- التعريف بطبيعة المنشآت العسكرية وأهميتها.
- عرض لأنواع وأشكال الاستحكامات العسكرية الحمادية.

- تقييم لأداء المنشآت العسكرية استشهادا بالظواهر التاريخية المختلفة.
- واقعها الأثري الحالي، ومدى الاستفادة منه سياحيا.

١ـ التعريف بطبيعة المنشآت العسكرية وأهميتها:

الدولة الحمادية واحدة من الدول التي قامت في المغرب الأوسط، ضمن فضاء القسم الغربي من الدولة الإسلامية ابتداء من القرن الخامس الهجري، ووفق إطار جغرافي امتد من الناصرية (بجاية) شرقا، إلى وادي ملوية وراء تلمسان غربا[١]، لتعرف هذه الحدود اتساعا أشمل في العهد الحمادي ممتدة من مدينة بونة شرقا – كحد فاصل بين المغربين الأوسط والأدنى (إفريقية) – إلى مدينة تلمسان وما والاها كفاصل بين المغربين الأوسط والأقصى[٢].

ساهم "حماد بن بلكين" (٤٠٥-٤١٩ هـ / ١٠١٤-١٠٢٨م) مؤسس الدولة في دعم الدولة الأم(الزيرية) قبل إعلان انفصاله عنها سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م، كرجل حرب عرف بشجاعته وإقدامه، في تحقيق مكاسب عدة، لصالح ابن أخيه "باديس بن المنصور" سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، الذي كلفه بمتابعة بطون قبائل "زناتة " والعمل على وضع حد لهجماتهم المتكررة على الحدود الغربية لدولته، مقابل ذلك كلفه بالإشراف على تسيير شؤون المغرب الأوسط، خاصة المنطقة المحصورة بين جبل أوراس شرقا إلى تلمسان وملوية غربا[٣]، وما زاد في تشجيعه على ذلك بناؤه للقلعة سنة ٣٩٨هـ /١٠٠٦-١٠٠٧م، فاستغل محاولة "باديس" لتقويض سلطته على ولايته، فكانت سببا مباشرا لإعلان المواجهة العسكرية بين الطرفين، وإيذانا بانقسام ملك الدولة الصنهاجية إلى فرعين: الأول بالمغرب الأدنى(الدولة الزيرية)، والأخرى بالمغرب الأوسط(الدولة الحمادية)، وعليه مر تاريخها من التأسيس حتى السقوط بالفترات الثلاث التالية:

الفترة الأولى:(٤٠٥-٤٤٣هـ/١٠١٤-١٠٥١م)

ببناء "حماد" لقلعته سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، التي جعلها قاعدة لاستقلاله سياسيا عن الدولة الزيرية، ومذهبيا عن الخلافة الفاطمية الإسماعلية الشيعية، وإعلانه بالمقابل ولائه للعباسيين خلافة، وللسنة مذهبا ابتداء من

---

[١] لقبال موسى وبورويبة رشيد وآخرون، الجزائر في التاريخ - العهد الإسلامي- من الفتح إلى بداية العهد العثماني، ج٣،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط ١٩٨٤، ص ١٣.

[٢] ابن أبي دينارعبد لله محمد القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية و تونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط٣،١٣٨٧ هـ، ص٩٥.

[٣] ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ١٩٧٩، ص٥١٩.

سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م٤، مما نتج عنه صراع مرير بين أبناء الأسرة الصنهاجية الواحدة.

الفترة الثانية:(٤٤٣-٤٨١ هـ/١٠٥١-١٠٨٩م)

بلغت فيها الدولة الحمادية أوج عظمتها[٥] اتساعا، وحضارة وثقافة، خاصة على عهد أميرها "الناصر بن علناس"، الذي نقل عاصمة الدولة من القلعة إلى الناصرية (بجاية) سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٨م[٦]، في محاولة منه لعزل الهلاليين، وفتح آفاق جديدة لدولته.

الفترة الثالثة: (٤٨١-٥٤٧ هـ/١٠٩-١١٥٢ م)

تقلص خلالها نفوذهم تدريجيا، رغم نشاطهم البحري الكبير في صد النورمان بقيادة ملكهم "روجرII" ووضع حد لتواطؤ حكام إفريقية معهم، بحملات "العزيز بن المنصور" وخليفته "يحي" على المهدية وما والاها[٧].

فكان الحماديون في مستوى التحدي بنائهم لقوة حربية برية وبحرية كبيرة أهلتهم لمباشرة إما التوسع برا على حساب جيرانهم، أوالمبادرة بالهجوم انطلاقا من موانئها المنتشرة عبر الساحل، ممتدة من ميناء بونة شرقا مرورا بميناء جيجل وبجاية، وجزائر بني مزغنة، وصولا إلى تنس غربا، فكانت مبادراتها العسكرية البحرية المتعددة التي فوتت الفرصة على المسيحيين في الوصول إلى إفريقية والمغرب، رغم غاراتهم الناجحة على بونة، وجيجل وشرشال وتنس والمهدية (بإفريقية) بين ٥٣٧-٥٤٣هـ/١١٤٢-١١٤٨م [٨]. إلى أن سلم مشعل الجهاد البحري الذي حملوه، للموحدين بعد استيلائهم على ملك الحماديين عشية امتلاكهم لبجاية ثم القلعة في سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م، وعقب تنسيق عسكري بينهما في صدّ العدو النورماني المشترك قبل هذا التاريخ.

---

[٤] العدوي إبراهيم أحمد، بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ط١٩٧٠، ص١٧٣.

[٥] اسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك لقلعة و بجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١٩٨٠، ص١٣٨.

[٦] داود بن يوسف سليمان، حلقات من تاريخ المغرب الإسلامي، مطبعة أبو داود، الجزائر، ط ١٩٨٣، ص ٨٣.

[٧] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج١، ترجمة وتحقيق ليفي بروفنسال، وكولان(ج . س)، دار الثقافة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣، ص ٣١٢؛ ابن خلدون عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٦، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط ١٩٨٣، ص ٣٣١.

[٨] ابن عذاري، نفسه، ج١، ص٣١٣؛ المطوي محمد لعروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١٩٨٢، ص٢٢٤؛ بوتشيش إبراهيم القادري، تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١٩٩٤، ص ٧٢.

وانعكس هذا التفوق العسكري على الجانب الحضاري، إذ ولد استقرارا سياسيا ساهم بصورة مباشرة في حيوية النشاط الاقتصادي للدولة بفعل التحصينات العسكرية المتنوعة في شكل مدن، أو حصون، أو قلاع ، أو أبراج مراقبة، مكنها من تأمين طرق التجارة بين الأمصار فيما بينها داخليا، أو بين مدنها ومدن خارجة عن سلطتها من جهة أخرى ، ونشط حركة السلع خاصة عبر طريق التجارة التقليدي، الرابط بين القلعة وبلاد السودان غربا عبر مدينة سجلماسة[٩]، ومنه إلى المدن الساحلية ، بازدهار المراكز التجارية البحرية الحمادية انطلاقا من بجاية إلى المشرق وأوروبا، فغدت بذلك مركز عبور هام للتجارة العالمية وقد أعطى الإدريسي وصفا حيا لحيوية ذلك النشاط فقال: " ومدينة بجاية .. عين بلاد بني حماد، السفن إليها مقلعة، وبها القوافل منحطة.. وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء والمشرق وتباع البضائع بالأموال المقنطرة "[١٠].

هذه المعطيات كلها جعلتنا نفصل بين مرحلتين تاريخيتين متمايزتين من عمر الدولة الحمادية في جانبها العسكري:

أما الأولى: فامتدت من التأسيس إلى نقل مقر العاصمة من القلعة إلى بجاية وأهم مواصفاتها: الاتجاه نحو وضع الأسس الأولى للدولة وفي مقدمتها إنشاء قوتها العسكرية ممثلة في الجيش النظامي المتكون عادة من الأفراد الذين يتلقون ممارسة وتدريبا حربيا دائما، مما يجعلهم على استعداد دائم للذود عن حياض الدولة، والأخطار التي تهددتها، وقد أمكن لهذا الجيش تحقيق انتصارات عدة، بتعدد المواجهات التي خاضها ضد خصوم الدولة، وتمكن من تثبيت ركائزها، ووسع إطارها، وحافظ على حدودها رغم التحديات التي واجهتها.

المرحلة الثانية: ويؤرخ لبدايتها بإنشاء "الناصر بن علناس" لمدينة بجاية ذات الموقع الهام المفتوح على البحر ثم تمصيرها واتخاذها عاصمة جديدة بديلة عن القلعة منذ ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. خلالها أضحت الدولة أكثر قوة ومهابة، بانتقالها من مرحلة التأسيس إلى البناء الحضاري الحقيقي، تجلى ذلك في الانجازات المحققة التي انتقل فيها الجيش إلى قوة أكثر فعالية وخبرة وتنظيما، خاصة جمعه بين فئتين: قوات برية وأخرى بحرية، بامتلاك الدولة لأسطول حربي ساعدها على صناعته، انفتاحها على الواجهة المتوسطية، ووفرة الإمكانات المادية خاصة البحرية منها، إضافة إلى حجم التحديات الجديدة التي فرضت عليها في إطار الصراع بين الشرق والغرب، الذي أصبحت تمثل أحد أطرافه الرئيسية في الحوض الغربي للمتوسط بحكم قدرة جيشها القتالية، والاستناد إلى التحصينات العسكرية التي أقامتها بالمنطقة، مما مكنها

[٩] الجنحاني الحبيب، المغرب الإسلامي،الحياة الاقتصادية والاجتماعية(٣-٤ هـ / ٩-١٠م)، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط ١٩٧٨،ص ١٧٦.

[١٠] الإدريسي أبو عبد الله محمد، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس- مأخوذ من " كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق"، مطبعة بريل، ليدن، ط ١٩٦٨، ص ٦٣.

من كسب الزيادة سياسيا وعسكريا، وضمان التوسع الدائم بامتلاك مناطق نفوذ جديدة على حساب جيرانها[١١].

أما المنطلق الثاني للاتجاه نحو المنحى التحصيني للمدن والمواقع الحمادية، فهو الصراع السياسي، والمواجهات الحربية بينهم وبين بني عمومتهم الزيريين، منذ القطيعة التي حدثت بين الطرفين، والتي انتهت إلى استقلال "حماد بن بلكين " بالمغرب الأوسط سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م، وتأسيسه لقاعدته العسكرية المحصنة، وعاصمة دولته "قلعة بني حماد"[١٢]، لاتخاذها منطلقا هجوميا ودفاعيا في وجه خصومه، عند قيامهم بأية محاولة لاسترجاع ما فقدوه[١٣]. ومنها على سبيل المثال لا الحصر محاصرتهم للقلعة وعجزهم عن دخولها وامتلاكها، خلال الفترة الممتدة ما بين سنة ٤٠٦-٤٠٨/١٠١٤-١٠١٧م، على عهدي كل من "باديس" و"المعز" الأميرين الزيريين، وتكررت المحاولات والمواجهات بين الطرفين طوال حياة الدولتين، وتغير مسار ذلك بالنسبة للحماديين من حالة الدفاع إلى الهجوم في عهد "الناصر بن علناس" (٤٥٤-٤٨١هـ/١٠٦٢-١٠٨٨م)، أو خليفة "المنصور" (٤٨١-٤٩٨هـ/١٠٨٨-١١٠٤م)، وصولا إلى آخر ملوكهم يحي بن العزيز (٥١٥-٥٤٧هـ) الذي جدد الحملات البرية والبحرية ضدهم[١٤].

أما الاعتبار الثالث: فيعود إلى الموقع الوسطي الذي تميزت به الدولة الحمادية والذي كان حافزا قويا لتوظيفه تجاريا سواء في عهد القلعة أو بجاية، فدفعهم إلى ضرورة الاهتمام بتحصين المدن ونقاط المراقبة تأمينا للطرق التجارية، وحماية لمداخيل الدولة.

فالقلعة مثلث منطقة اتصال حيوية بين الشرق والغرب خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري فيما عرف بطريق السودان، فتنوعت بذلك أنشطتها الاقتصادية عموما، والتجارية خصوصا[١٥]، وغدت قبلة القوافل واتسعت خيراتها،

---

[١١] ابن الأثير أبو الحسن عبد الواحد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، ج٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٦٧، ص٤٧.

[١٢] النويري شهاب الدين أحمد، نهاية الأرنب – ج ٢٤ (الجزء ٢٢ حسب تصنيف النويري) تحقيق محمد جابر عبد العالي الحيني ومراجعة ابراهيم مصطفى المكتبة العربية، يصدرها المجلس الأعلى بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب (مركز التحقيق التراث) القاهرة، مصر، ط ١٩٨٤ م / ١٤٠٤ هـ،ج٢٤، ص ص١٩٢،١٩٤؛ ابن عذاري،المصدر السابق،ج١، ص ص٢٦١، ٢٦٤.

Golvin Lucien, Le Magrib Central à l'Epoque des Zirides, Recherches d'Archéologie et d'Histoire Arts et Métiers Graphique, Paris,1957, p105 ; Cornevin Robert , histoire de l'afrique,des Origins au XVI siecle, Paris 1967, T I , p 270.

[١٣] بدر أحمد، تاريخ المغرب والأندلس، المطبعة الجديدة، دمشق ،سوريا، ط ١٩٨٠، ص١٦٢.

[14]Boruouiba Rachid, l'Art Religieux Musulman en Algérie, S.N.E.D, Alger,1973, p 22.

[١٥] الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٦.

وكثر مالها، أما بجاية بمنفذها البحري فلعبت هي الأخرى دور الوسيط بين المغرب وأوربا وسائر مناطق العالم، إذ ذكر الإدريسي أن استحوذت على أقاليم وأعمال ومزارع مما اوجد وفرة في مادة الحنطة وسائر الحبوب، والتي كانت تصدر إلى كل الآفاق بواسطة مختلف أنواع المراكب[١٦].

وهو ما يعطي صورة ناصعة عن حيوية الحركة التجارية والنشاط الفعال للمدن الحمادية، ومن ثم حتمية حمايتها من غارات المعتدين نظرا لتعدد خصومهم، وطبيعة الموقع الذي يحتلونه.

وساهمت المتغيرات السياسية والعسكرية التي عرفتها بلاد المغرب كمنطلق رابع أي توتر العلاقات بين الفاطميين وحلفائهم الزيريين حول إفريقية والمغرب، منذ القطيعة السياسية والمذهبية التي حدثت بين الطرفين على عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة٤٤٠هـ/١٠٤٨م[١٧]، واستعمال القبائل العربية[١٨] انطلاقا من صعيد مصر صوب إفريقية في محاولة دفعها للقضاء على ملك الزيريين، ومنها الانتقال إلى المغرب الأوسط، مما دفع الحماديين إلى بناء تحصينات جديدة يؤمّنون بها حدود دولتهم[١٩]، فكان إنشاء مدينة بجاية المنفذ البحري لقلعة بني حماد، والتي أحيطت بحصون وأبراج لتحقيق أغراض دفاعية، تتمثل أساسا في مراقبة تحركات الهلاليين بالمنطقة، والتي أشار الإدريسي إلى بعضها مثل: حصن دار ملول الذي احتوى على مرصد يتطلع به حركة هؤلاء الأعراب[٢٠]، وهو ما يفسر لجوء الحماديين إلى الساحل والمناطق الجبلية، فاستعصت بذلك مواقعهم ومدنهم على العرب الهلاليين ،في حين فشل بنو عمومتهم الزيريين في ذلك، وهو ما زاد في تمرس الدولة حربيا، مستغلين هذه الظروف للتوسع على حساب ممتلكات الزيريين.

---

[١٦] الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٣؛ العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية ، تحقيق أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية، مطبعة البعث، قسنطينة، بدون تاريخ، ص٢٣.

[١٧] تباينت المصادر في تحديد تاريخ القطيعة بين: ٤٣٣هـ (ابن عذاري، البيان، ج١، ص ص٢٧٥،٢٧٦، أو سنة٤٣٥هـ، (ابن أبي دينار، المؤنس، ص٨٣)، أو ٤٤٠ هـ (ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٣٢٥)، أو ٤٤٢ هـ (ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٥)، أنظر أيضا: لقبال، دور كتامة في الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (١١م)، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر، ط ١٩٧٩، ، ص ص٦٠٣،٦٠٤.

[١٨] ابن خلدون، نفسه، ص ص٢٧،٢٨؛ يونس عبد الحميد، الهلالية في التاريخ والأدب والشعر، دار المعرفة،القاهرة، ط ٢، ١٩٦٨، ص ص ٧٠،٧٣.

[١٩] الفرد بل، ألفرد بيل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢ ، ص ٢١٣.

[٢٠] الإدريسي، نفسه، ص٩٣.

نتيجة لذلك أقام الحماديون عددا هاما من التحصينات حاولوا من خلالها تحقيق بعدين عسكريين: دفاعي، وهجومي في آن واحد، يتبن ذلك من اختيارهم المسبق لمواقع وأماكن بنائها.

فالحصانة الطبيعية التي تمتعت بها المناطق المرتفعة من جبال وهضاب اتخذت أساسا لإقامة منشآتهم الحربية[٢١]، إذ مكنتهم من مراقبة السهول والوديان المجاورة لمدنهم، وفي نفس الوقت رصد تحركات أعدائهم وتنظيم حركة تجارتهم، يبين الحموي ذلك في وصفه لقاعدة آشير إحدى المدن المحصّنة والهامة التي استندت إليها الدولة منذ فصلها عن الزيريين بقوله: " وهو موضع يتميز بسعة فضائه، وحسن منظره .. وأقيم على جبلها حصن منيع ليس على المحصن به من طريق إلا من جهة واحدة "[٢٢]. وعلى نفس المنوال أنشئت "القلعة" العاصمة الحمادية الأولى على جبل كيانة[٢٣] المحاط من الشرق بوادي فرج، وبجاية العاصمة الثانية على جبل أميسون، المتميز بدوره بصعوبة الارتقاء، والمحاط هو الآخر بالبحر شمالا، وبالوادي الكبيـــر - وادي الصومام - غربا ليكون حاجزا طبيعيا، يحصر المدينة ويحصنها[٢٤].

أنواع وأشكال الاستحكامات العسكرية الحمادية:

تعد الاستحكامات أسلوبا عسكريا، دفاعيا وهجوميا، اعتمدته الشعوب قديما وحديثا، ممثلة في مجمل المنشآت والموانع التي تنجز في مناطق يتم اختيارها على أسس فنية حربية، تسمح بتقوية موقع دفاعي ما، أو حمايته من هجمات العدو ورصد تحركاته، وعليه تأخذ التحصينات نوعين متباينين:

١- التحصين الدائم (ثابت) : تبنى هياكله في أوقات السلم عادة باستخدام مواد متنوعة منها الحجارة أو غيرها من مواد البناء، في شكل مدن أو قلاع أو أسوار أو خنادق، مع تدعيمها بوسائل دفاعية أخرى، باستخدام جذوع الأشجار أو المجانيق، أو السهام لضرب العدو. لتتطور إلى استعمال السلالم أو الأبراج المتحركة لكسر القدرة الدفاعية للعدو، واقتحام منشآته الدفاعية[٢٥].

---

[٢١] بورويبة ، مدن مندثرة - تاهرت سدراته ، آشير ، قلعة بني حماد - وزارة الإعلام والثقافة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١٩٨١، ص٧١.

[٢٢] الحموي شهاب الدين ياقوت، كتاب معجم البلدان، أسدي، طهران، ١٩٦٥ م، ص٢٨٦.

[٢٣] يسمى أيضا جبل كتامة، أو عجيسة أو تاقربوست، يقع شمال شرق المسيلة، أنظر: ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٣٥٠.

[٢٤] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، مصر، ط١٩٥٨، ص١٤٠؛ الطاهر الطويل، المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الأول إلى القرن الهجري الخامس، الناشر : المتصدر للترقية الثقافية والإعلامية، الجزائر، ط٢٠١١، ص ص ٢٩٨، ٢٩٩.

[٢٥] ابن العنابي محمد بن محمود، السعي المحمود في نظام الجنود، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط١٩٨٣، ص١٣٠؛ هندي إحسان، الحياة العسكرية عند العرب، مطبعة الجمهورية، دمشق، سوريا، ط١٩٦٤، ص ص١٤٨،١٤٣.

٢- التحصين الميداني(غير ثابت): يستخدم في حالة الحرب والمواجهة المباشرة مع العدو[٢٦]، لتحقيق غرض رئيسي هدفه إحداث التفوق على القوات المهاجمة أو وضع عراقيل أمامها للحد من حركتها، أو حماية الجنود في موقع المعركة وعادة ما تستخدم الخندقة وسيلة لإحاطة القوات المعسكرة للحماية من الهجمات المفاجئة أو عمليات التسلل الليلية لاختراق الخطوط الدفاعية أو رصد نقاط الضعف لدى العدو.

ولتثبيت المنشآت التحصينية العسكرية تطلّب الرصد الميداني لطبيعة الأرض التي تنجز عليها الحصون والقلاع وغيرهما، والتي من مواصفاتها الميزة الدفاعية البحتة. وتوقع نوعية الأسلحة المستخدمة والقدرة على تقييم الموقع بالنسبة للقوة المهاجمة أو المدافعة، وكذا تقييم أدائها الإيجابي أو السلبي عقب أي مواجهة تفاديا لمبررات الهزيمة، وتغليبا لكفة الانتصار.

وبناء عليه استحدث الحماديون جملة من الاستحكامات العسكرية، سعوا من خلالها تحقيق أهداف حربية ذات أبعاد دفاعية وهجومية، وفق ما تفرضه الظروف الطبيعية لكل منطقة، وطبيعة الخطط المعتمدة، مستفيدين في ذلك من الإمكانات المتوفرة، كون أغلبها بنيّ بمواد محلية أبرزها بحجارة الدبش، والطوب، مع إسنادها بالأعمدة الخشبية نظرا لإشراف الدولة على ثروة غابية هامة، فكانت كالتالي:

أ- الأسوار[٢٧]: من الوسائل الدفاعية التي غلبت على العمران العسكري الحمادي إحاطة مدنهم بأسوار منيعة أنشئت من الحجر والآجر ليأخذ البعض شكلا مزدوجا أي سورين متوازين، للزيادة في الاحتياط أو كضرورة فرضتها المناطق المنبسطة ، للوقوف في وجه الغارات المحتملة[٢٨].

فمن الناحية العملية كان لها الأثر الفاعل في صدّ الحملات الزيرية، ومنها حملة "باديس بن المنصور" الذي حاصر القلعة لمدة ستة أشهر دون أن يتمكن من دخولها، ووافته المنية بجوار أسوارها سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٤م.

كما صدّت الهلاليين الذين اكتفوا بالاستقرار في أحوزاها دون النيل منها، وبقيت صامدة حتى أنشأ "الناصر بن علناس" مدينة بجاية التي اتخذها عاصمة جديدة بديلا عنها.

---

[٢٦] ديري أكرم وآخرون، الموسوعة العسكرية ، ج١، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط١٩٨٠ ، ص ص٢٥٦،٢٥٧.

[٢٧] شكل تحصيني يحيط بالمدن والقلاع ، أخذت شكلا بدائيا في أول أمرها، لتتطور بشكل فعال خلال العهد العباسي في المشرق والمغرب، وكانت بغداد أول مدينة تحاط بالأسوار، مزودة بأبراج مراقبة، أنظر: القزويبي زكريا بن محمد، أثار البلاد و أخبار العباد، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت، ط١٩٦٠، ص ص٧،٨، صبحي الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٩٦٥، ص٥٠٤.

[٢٨] لقبال، بورويبة وآخرون، الجزائر في التاريخ، ج٣، ص ٢٣٧.

فقد تم اختيار موقع القلعة على أساس الحصانة الطبيعية من المكان الذي أنجزت عليه، والمستند إلى جبل تاقربوست، وحرصا على تقوية مناعتها، أحيطت بسور من الحجارة يقدر ارتفاعه بين أربعة وستة أمتار، يمتد على استدارة الجبل بطول خمسة أميال تقريبا[٢٩]، "وهي متعلقة بجبل عظيم مطل عليها، وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل طولا وعرضا"[٣٠]، "وهي.. في سند جبل سامي العلو، صعب الارتقاء، وقد استدار سورها، بجميع الجبل ويسمى تاقربوست، ومنه ملكت القلعة"[٣١]، وهو ما يحدد دقة الاختيار المسبق، فالموقع والسور المدعم له، ذو القيمة المتميزة أهل المدينة للحفاظ على ملك الدولة، وزاد في شهرتها ومكانتها العسكرية (أنظر الصورة ٣).

لتأخذ عاصمتهم الثانية بجاية نفس الطراز التحصيني، فقد بنيت هي الأخرى على سفح جبل يحفظها، وضرب حولها سور (أنظر الصورة ٧) مماثل امتد من شاطئ البحر ليصعد متدرجا حسب ارتفاع الأرض أو انخفاضها بدورة تعادل عشرة أميال[٣٢]، وامتد في خط يساير تعرج الشاطئ يحيط بالمدينة من الوجهة البحرية ليتعمد المهندسون اتخاذ الأرض الوعرة تحصينا طبيعيا يغني عن السور وهو ما يلاحظ في تقطعه من منطقة لأخرى[٣٣]، ويرجع هذا الاختيار إلى ظروف تاريخية وسياسية تتمثل في:

- طبيعة قبيلة صنهاجة الحربية التي ألفت بناء مدنها وقراها على الجبال، ونتيجة لتدهور مركز القلعة كعاصمة بعد الحملة الهلالية عليها، وهو ما أهلها للعب أدوار هامة في الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية للدولة ابتداء من القرن الخامس الهجري، خاصة على عهد أعظم ملوك بني حماد " الناصر بن علناس".

نفس الأسلوب التحصيني اعتمد في كل المدن التي بناها الحماديون ، فعلى غرار آشير التي أنشأها الزيريون، واستقل بها "حماد بن بلكين" منذ انفصاله بدولته، وكذا المحمدية (المسيلة) التي أحيطت بسورين متوازيين نظرا لوقوعها في بساط من الأرض مما سهل حمايتها، فكانت سند قلعة بني حماد في تموينها بالحاجيات غير

---

[٢٩] بورويبة، مدن مندثرة، ص،ص٨٥،٨٤.

[٣٠] تراوح عرض السورين بين ١.٧٠م، و ٢ م، وعلوه بين ٤ ، و٦ أمتار، واستدارته بحوالي٧ كلم.

أنظر: إسماعيل العربي، دولة بني حماد ملوك القلع وبجاية، ش.و.ن.ت، الجزائر بدون تاريخ، ص١٢٣؛ لقبال وبورويبة وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

[٣١] الإدريسي،المصدر السابق، ص٨٦.

[٣٢] الحميري، المصدر السابق، ص ٨٠.

[٣٣] إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص ص١٨٩، ١٩٠؛ إسماعيل العربي، " بجاية العاصمة الثانية لبني حماد " مقال بمجلة " الثقافة"، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، ديسمبر /جانفي ١٩٧٢ /١٩٧٣، ع١٨، ص٢٩.

المتوفرة بها[٣٤]، وعليه نستنتج بأن مضاعفة التحصين بهذا الشكل يعود إلى طابعها المنبسط، أو باعتبارها البوابة الجنوبية الغربية للعاصمة القلعة، ومن ثم سبقها في مواجهة أي خطر محتمل يأتي من عدوها اللدّود زناتة.

هذه الخصائص العمرانية الحربية شكلت الأطراف المختلفة لحدود الدولة، وجعلتها تقف في وجه أغلب الحملات والغزوات التي شهدتها، مما ساهم في حركية النشاطات المختلفة خاصة في المرحلة الثانية من عمرها، أي منذ اتخاذ بجاية عاصمة بديلة ابتداء من سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧ م.

ب- الحصون والأبراج[٣٥]:

ثبت الحماديون أبراجا وقلاعا للمراقبة، في شكل بنايات عسكرية تنشأ على أطراف الأسوار أو بداخلها، وتكون غالبا على المناطق المرتفعة، فتعد بذلك تكملة لدور الأسوار، وأسلوب ترصّد لكل حركة مشبوهة تحيط بها،أخذت هذه الأبراج والحصون أشكالا هندسية متعددة، إذ أخذت قلعة أبي طويل[٣٦]، الشكل المربع الذي يسمح برؤية أوسع وأشمل، وقد حددّ ابن الأثير مواصفاتها فقال بأنها من أحصن القلاع وأعلاها، ترى على جبل شاهق، لا يكاد الطرف يحققها نظرا لعلوها[٣٧]، فقد كان إنشاؤها ابتداء على أساس حصن على سفح الجبل، يدعم ويعزز دور قاعدة آشير العسكرية للوقوف في وجه بطن مغراوة الزناتية(أنظر الصورة١و٢) منذ تفطن "حماد" لنقاط ضعف المواقع الحربية التي ورثها عن الزيريين، مستندا إلى الأهمية المتميزة التي يحظى بها المكان الجديد، فهو حصن قديم[٣٨]، المتجدد نواة للقلعة،

---

[٣٤] البكري أبو عبد الله المرسي، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ، وهو جزء من كتاب: " المسالك والممالك"، تحقيق البارون، ص٥٩ ، ابن حوقل أبو القاسم حمد النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت بدون تاريخ، ص١٦٣.

[٣٥] الحصن: قلعة أو برج مراقبة، تقام عادة بمعزل عن المدن بالمناطق المرتفعة الشاهقة ، تتميز بالأهمية الإستراتيجية، والبرج بدوره حصن عسكري يأخذ أشكالا مختلفة،ينشأ عادة داخل سور المدينة،يتميزان بضخامة الهيكل وصلابة المادة المستعملة في بنائهما،أنظر: بنعبدالله عبد العزيز، الجيش المغربي عبر التاريخ، منشورات قسم الدراسات الدبلوماسية، الرباط، ط ١٩٨٦، ص ٦٢، ص٧٢.

[٣٦] القلعة التي اشتهرت بـ "قلعة بني حماد"، القاعدة الأولى لحماد بن بلكين، اختطها بنفسه للتحصن، واتخذها باستقلاله عاصمة لدولته. أنظر : المراكشي،المعجب، ص١٧٤.

[٣٧] ابن الأثير، المصدر السابق، ج٩، ص٣١، الإدريسي، المصدر السابق، ص٨٦.

[٣٨] المنطقة نفسها استمالة أنظار الرومان فأقاموا بها تحصينات بقيت مستعملة حتى العهد الفاطمي ، واستهوت أبا يزيد مخلد المعروف بالخارجي على الاعتصام بها أثناء ثورته على الفاطميين ما بين (٣٢٢ – ٣٣٢ هـ) أنظر: إسماعيل العربي، دولة بني حماد، ص١٢٠، بن عميرة، المرجع السابق، ص ٢١٢ ، سالم السيّد، المغرب الكبير،ج٢، ص٦٣٠، بورويبة، مدن مندثرة، ص ص٨٣،٨٤، علاوة عمارة، " قلعة بني حماد- نشأة وأفول حاضرة إسلامية-"، مقال" بمجلة حوليات الآداب واللغات"، جامعة المسيلة، ع٣، ديسمبر ٢٠١٣، المسيلة، الجزائر، ص ٢٢٣ وما بعدها.

وعاصمة الحماديين بتأسيس الدولة. ومن أبراجها الهامة برج المنار(أنظر الشكل ٢،٣) الذي بلغ طول الضلع الواحد منه حوالي عشرين مترا، وعليه ارتبط مصطلح القلعة بأنه استحكام حربي يبنى في منطقة ذات أهمية دفاعية مثل الجبل أو التلّ، أو الربوة أو على الساحل، أهميتها ترصد حركة العدو، ومن ثمّ يستغل في حالة الدفاع((أنظر الصورة ٦،٥).

ورغم أن القلعة عادة كما توصف، تعتبر قاعدة عسكرية صرفة، إلا أن مدينة مثل قلعة بني حماد خرجت عن المألوف، إذ حملت مواصفات الحصن أو المدينة التي يستقر فيها الحاكم ورعيته، تستحدث فيها العمارة العسكرية والمدنية على غرار أبراج المراقبة، والمساجد والقصور والدور ومختلف المرافق التي تحتاجها الساكنة.

وعليه إلى جانب الاستحكامات الحربية المذكورة، ظهرت لنا من خلال المعاينة الميدانية، ووفق الملاحق المرفقة بهذه المداخلة، أن منارة مسجد القلعة احتوى "مزاغل"[٣٩] استخدمت في رصد تحركات المناوئين لهم((أنظر الصورة ٤)، وحركة القوافل التجارية عبر فضاء القلعة المفتوح على سهل الحضنة الفسيح، فأدت بذلك وظيفة عسكرية على غرار الغرض الأصلي الذي بنيت من أجله(أنظر الشكل١).

والأسلوب الدفاعي نفسه اعتمد ببجاية، إذ زودت أطراف سورها بأبراج متعددة لتنظيم الحراسة حولها للتطلع إلى الآفاق البحرية والبرية، خاصة على قمة جبل قوراية، والذي بلغ ارتفاع البعض منها ستة أمتار[٤٠]، منها حصن البحر، وبرج قوراية، وبرج المنارة أو شوف الرياض المنفتح على الواجهة البحرية وعلى ثلاثة أبواب من المدينة، وكذا برج بوليلة، وعليه حدّدت المسافة على العموم بين كل برج وآخر عبر دائرة السور بخمس وعشرين مترا، تتخللها ممرات الحراس في أعلى كل برج، اعتمد في إنجازها مادتا الحجر والآجر[٤١].

وللقيام بدور المراقبة بكل فطنة وحيطة زوّدت الأبراج بوسائل تستعمل في الاتصال على مستوى المدينة ذاتها أو بين مدن الدولة بكاملها.

وأمام التحدي الجديد الذي لازم الدولة منذ الحملة الهلالية على إفريقية وأحواز القلعة، أنشأ الحماديون حصونا متقدمة للربط بين المراكز الهامة للمملكة بهدف رصد تحركات الأعراب الوافدين، الذين تكررت غاراتهم على المنطقة، خاصة على الطريق الرابط بين بجاية والقلعة، زوّدت بأبراج للمراقبة أخذت شكلا مربعا أو

Bourouiba Rachid , L'Architecture Militaire de L'Algérie Médiévale, O.P.U , Algérie, 1983 , P 75

[٣٩] عبارة عن فتحات محدبة تستحث على جدران برج المراقبة لرصد حركة العدو عن بعد واستخدامها في رمي السهام أو غيرها من المقذوفات.

[٤٠] المدني احمد توفيق، كتاب الجزائر، دار الكتاب، البليدة، الجزائر، ط٢، ١٩٦، ص١٨٤.

[٤١] بورويبة رشيد، دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، بيروت، ط١٩٨٠، ص٢٠٢.

مستطيلا عادة ، أنشأت على قمم الجبال ، أورد الإدريسي حصرا لبعضها على غرار: حصن سوق الخميس الذي شيد في أعلى جبل، ذكر أن تقدر العرب لا تقدر عليه لمنعته، وسوق الاثنين، وصفه: بأنه "قصر حصين والعرب محدقة بأرضه وفيه رجال يحرسونه.."[٤٢]، وحصن دار ملول أشرف على مرصد استخدم في رصد تحركات القبائل بني هلال ومن والاها[٤٣]، وحصون أخرى مثل حصن تاكلات[٤٤]، وحصن بكر[٤٥]، وحصن سحاو الذي أقيم على أعظم الجبال علوا، وأصعبها ارتقاء ومسلكا بالمنطقة، مما استعصى على القبائل المتربصة به، ذكر الإدريسي أن هذا الجبل لا تتعداه العرب لمنعته وحصانته[٤٦].

كثافة هذا النوع من التحصينات، أكدت الطابع الحربي للدولة، واستعداداتها الدائمة لمواجهة الأخطار المستجدة ومنها تجربتهم مع الهلاليين والتي رغم تأثيراتها على المنطقة، بالسيطرة على محيط عاصمتهم الأولى القلعة، إلا أنها بالمقابل ساهمت في صقل إطارها عسكريا، وجعلتها تتفاعل مع الأحداث بكل إيجابية، إذ مكنتهم قدرتهم في هذا المجال لتفادي التأثيرات المباشرة للهلاليين بدمجهم ضمن أجهزة الدولة المختلفة ومنها الجيش، أو بوضع حواجز تحصينية تحول دون وصولهم إلى حواضر المملكة الأخرى، ومنها إنشاؤهم لعاصمتهم الثانية الناصرية (بجاية)، التي مكن اختيار مكانها الجيد، وتحصيناتها القوية من الوقوف في وجههم، مما جعل المؤرخين يصنفونها ضمن أبرز الكيانات الحربية التي قامت في المغرب الأوسط، بحكم تأقلمها الدائم مع المتغيرات التي شهدتها المنطقة خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين.

الخنادق[٤٧]:

---

[٤٢] الإدريسي، المصدر السابق، ص ٦٤.

[٤٣] الإدريسي، نفسه ، ص ٨٦.

[٤٤] حصن على مرتفع يطل على الوادي الكبير(الصومام) ببجاية، عنه أنظر:الإدريسي، نفسه، ص٦٤.

[٤٥] ينفتح على مراع واسعة، والوادي الكبير(الصومام)، ينبع إلى الجنوب من المدينة، أنظر: الإدريسي، نفسه، ص٦٥.

[٤٦] الإدريسي، المصدر السابق، ص ص٩٢-٩٧.

[٤٧] مفرده خندق، مصطلح فارسي "كندة "، معناه الشيء المحفور، أحد الأساليب الدفاعية في النظم الحربية، يكون محفورا في الأرض بأعماق مختلفة لتأمين حماية المقاتلين من أنظار العدو، ونيرانه، وتأمين ظروف أفضل للرصد والرمي والحركة، استخدم منذ القدم لحماية القلاع، المعسكرات والمدن، استعمله المسلمون لأول مرة على عهد الرسولρ في حربه مع قريش، بإشارة من الصحابي" سلمان الفارسي،فسميت الغزوة بـ" غزوة الخندق"، للمزيد عنه: أنظر: ابن خلدون، المقدمة، ص، ص٤٨٦،٤٨٧، ابن العنابي، المصدر السابق، ص١٥٣، صبحي الصالح ،المرجع السابق، ص ص٥٠٢،٥٠٣ ؛ ديري أكرم وآخرون، الموسوعة العسكرية، ج٢، ص١٧٣، ص١٨٢.

من الأساليب التي اعتمدت لزيادة تحصين المدن ، ودعم القدرة الدفاعية للأسوار وأبراج المراقبة، باعتبارها من الأسس العسكرية التي تستند إليها الدولة عادة حسب ما ذهب إليه القزويني: " ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب .. كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي بأس، فألهمهم الله إلى اتخاذ السور والخندق"[٤٨].

تجربة حفر الخنادق حول المدن الموغلة في عمق المناطق الجنوبية، وتخوم الهضاب العليا، يؤكد على القدرة الفنية الحربية للحماديين، بالنظر إلى افتقار المدن الوسطى والشمالية لمثل هذا النوع من التحصين، و يعود ذلك الاختيار حتما إلى طبيعة المنطقة السهلي الذي يسمح لأي عدو بالحركة السريعة فيها بحكم انبساطها، وقدرته بذلك على الوصول إلى مشارف مدنها، وعدم الاستناد إلى الأسوار كوسيلة كافية للتحصن، دفعهم إلى إقامة الخنادق باعتبارها وسيلة ناجعة في مثل هذه الأماكن، بحكم تجربة من سبقهم في ذلك، وخاصة من تشابه معهم في نفس الواقع الجغرافي وعليه أحيطت المدن الداعمة لكل من القلعة وبجاية بهذا النوع من التحصين على غرار مدينة المسيلة التي أقيم بين سوريها المتوازيين المحيطين بها، خندق به ماء جاري[٤٩]، وخندق مماثل على سوق حمزة(البويرة)[٥٠].

ج-الرباطات[٥١]: شكل آخر مكمل لباقي الطرق التحصينية المعتمدة، بنيّت على المنفذ البحري(المتوسطي) لتأمين حركتها التجارية التي ربطتها بمختلف الأصقاع، إذ

---

[٤٨] القزويني،المصدر السابق، ص٧.

[٤٩] البكري، المصدر السابق، ص٥٩.

[٥٠] البكري، نفسه، ص٦٥.

[٥١] -مفردها "رباط" ، "مرابطة" ، وتجمع على "ربط" ، و"رابطة" و"أربطة" و"رباطات"، أي التمركز على الثغور والإقامة على التصدي للعدو بالحرب، والعمل على مراقبة العدو والصدام مع مفارزه المتقدمة (قوات الاستطلاع). عرف منذ صدر الإسلام، ويعني تمركز المقاتل(المرابط) على الحد الفاصل بين دار الإسلام ودار الحرب.

وفي المغرب الإسلامي ظهر الرباط كمؤسسة دينية وحربية في صورتها المعروفة منذ أواخر القرن الثاني الهجري، لتأخذ معنى الثغر، ورغم التشابه بين المصطلحين، إلا أن الثغر استخدم عادة في المشرق والرباط بالمغرب. من الرباطات التي اشتهرت ببلاد المغرب "رباط المنستير" الذي بناه الوالي العباسي "هرثمة بن أعين" سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م، بأمر من الخليفة هارون الرشيد كحصن لمراقبة تحرك الأسطول البيزنطي، و"رباط سوسة" الأغلبي سنة ٢٠٦هـ. والرباط عبارة عن ثكنة تتركب من صحن وعشرات الغرف الانفرادية حوله، ومن طبقات تعلو جوانبه، تنتهي بجامع وصومعة تستخدم للآذان، وبرج مراقبة للسواحل تجنبا لغدر المسيحيين، مع استخدام وسائل متعددة للاتصال بين الرباطات المختلفة مثل المرايا العاكسة، والحمام الزاجل نهارا، والنار ليلا لتناقل الأخبار فيما بينها، للمزيد انظر: ابن عذاري، البيان،ج١،ص ص٨٨،٨٩، السراج محمد بن محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،ج ٢، تحقيق ونشر محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، ط١٩٧٠، ص٢٩٧؛ التجاني أبو محمد عبد الله بن محمد، رحلة التجاني، تحقيق وليام مرسي وتقديم حسن حسني عبد الوهاب، بدون مكان الطبعة، ط١٣٧٧هـ، ص

ساهمت التحديات السياسية والدينية الناشئة في الحوض الغربي للمتوسط، وما قامت به من نشاط فعال على الثغور والموانئ البحرية التابعة لها ضمن هذا الإطار، دافعا قويا لإنجاز هذه المنشآت العسكرية، خاصة وأن حدود الدولة ارتبطت بمياه إقليمية جعلتها في مواجهة النورمان الذين ظهورا على مسرح الأحداث في المنطقة بشكل لافت مع بداية القرن السادس الهجري(١٢م)، بل الذين تمكنوا بقوتهم المتنامية من غزو الكثير من موانئ المغرب الإسلامي فامتلكوا بعضها، وهو ما جعل أغلب المؤرخين يصنفونه ضمن إطار الوقوف في وجه الحملات الصليبية التي بدأت في المشرق، واستمرت في المغرب في العهدين الزيري والحمادي[٥٢]، كان من مظاهرها تلك المواجهات العنيفة مع عديد الإمارات بجنوب أوربا، مثل إمارة صقلية وسردينيا وبيزا وجنوة، إذ كثيرا ما أغار البحارة الحماديون على هذه المواقع، بالمقابل باشر قراصنة هذه الإمارات الرد بالمثل، ومنها دخول "يحي بن العزيز" أخر ملوك بني حماد في مواجهة مباشرة مع أسطول "روجر II" ملك صقلية المتحالف مع حاكم المهدية الزيري، أمام الأخطار المحدقة التي عبرت عن طابع الصراع المحتدم بين الجانبين للهيمنة على الحوض الغربي للمتوسط[٥٣].

فالرباطات البحرية أنشئت أساسا لتجمع بين وظائف عدة دينية وعسكرية واقتصادية، ومنها ما استندت إليها العاصمة الثانية للدولة الحمادية "الناصرية" بحكم موقعها المتميز على الواجهة البحرية، إضافة إلى رباط مشهورة أخرى منها: رباط " شرشال " الذي ذكره الرحالة البكري في معرض حديثه عما وقف عليه بالمدينة، فقال: " وفيها رباطات يجتمع إليها في كل عام خلق كثير[٥٤]، وقد كانت في وقته من ضمن أعمال بجاية[٥٥]، وكذا رباط مغيلة القريب من مدينة تنس((أنظر الصورة ٨)، الذي اتخذ موقع مواجها لإمارة سردينيا بجنوب أوربا، ورباط ملالة[٥٦]، خارج مدينة

ص٣٠،٣١، حسن حسني، ورقات، القسم ٣ ص ص٤٠٣،٤٠٥؛ بلغيث محمد الأمين، الربط بالمغرب الإسلامي - ودورها في عصري المرابطين والموحدين- رسالة ماجستير(مخطوطة)، معهدالتاريخ، جامعة الجزائر، ١٩٨٧،ص ص٣٤، ٣٥، ص ص١٠٨،١٠٩، ١١٣؛ الخولي أمين – الجندية والسلم- واقع ومثال-، دار المعرفة، القاهرة، ط ١٩٦٠، ص ص٦٠،٦١؛ خورشيد ابراهيم زكي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مج١٠، مادة "رباط " لمرسيه جورج، ترجمة الشناوي، بدون طبعة ولا تاريخ، ص١٩ .

[٥٢] الصباغ ليلى، مداخلة بملتقى الفكر الإسلامي الثامن، بجاية ٢٥ مارس /٠٥ أفريل ١٩٧٤، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مج II، ص ٦١٦.

[٥٣] بورويبة، الدولة الحمادية، ص ١٢٠.

[٥٤] البكري،المصدر السابق، ص٦٢.

[٥٥] القزويني، آثار البلاد، ص ٢٠٨، خورشيد ابراهيم وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "شرشال" لـ G.yver ترجمة أحمد الشنتاوي،مج ١٣، ص ١٨٩.

[٥٦]القزويني،نفسه، ص ٢٠٨؛ بلغيث، المرجع السابق، ص ١٩٤.

"بجاية"، إذ بقي يقوم بدوره الدفاعي على الضفة البحرية حتى عهد"عبد المؤمن بن علي "الموحدي" واستيلائه على هذه الأخيرة في القرن السادس الهجري[٥٧].

بواسطة هذه الاستحكامات الحربية المتقدمة، الدولة الحمادية الأخذ بزمام المبادرة في المنطقة خلال النصف الثاني من القرن الخامس والأول من القرن السادس الهجريين، مكنها من القيام بدورها التاريخي في الحفاظ على حدود الدولة الإسلامية، رغم تجزأ دوله، وتعدد نظم الخلافة بها، وأهلها للمحافظة على تلك الروح الحيوية في ضد الحملات الصليبية الأولى في المنطقة، ليتمكن سكان المغرب الأوسط مستقبلا من دعم الأندلسيين الفارين من بطش محاكم التفتيش خلال القرنيين الخامس والسادس عشر الميلاديين.

د- المدن:

مثلت الركيزة الأساسية لكل الآليات الدفاعية، كون اختيار أماكن انجازها يخضع لمنطلقات جغرافية وعسكرية، وذلك استنادا إلى الطبيعة المعقدة للمنطقة، وإلى الطابع الحربي الذي اتصفت به الدولة الحمادية، فباستنطاق الجانب التنظيري في هذا المجال، فإن القزويني على سبيل المثال حدد الأسس المستند إليها عند إنشاء المدن فقال: ".. ثم إن الملوك لما أرادوا بناء المدن.. اختاروا أفضل ناحية في البلاد وأفضل مكان من الناحية، وأعلى منزل في المكان في السواحل والجبال"[٥٨].

فكان إنجازهم لأغلب مدنهم بناء على خلفيات طبيعية، ذات أبعاد حربية، بدعم من الأشكال التحصينية المذكورة، ومنها على سبيل المثال، آشير القاعدة العسكرية التي ورثوها عن بني عمومتهم الزيرين، وكذا المدن الثلاث الداعمة لها المدية وملیانة وجزائر بني مزغنة، التي بنيت على التوالي خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري(١٠م)، وقد استند إليها حماد عند بنائه وإعماره لقلعته، مدينة قلعة بني حماد سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، بعد أن أقطعه ابن أخيه "باديس بن المنصور" سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م أياها، ليقيم بها ملكا تمتع في بدايته بالكثير من مظاهر الاستقلال، إلى أن انفصل بدولته نهائيا بانقسام ملك صنهاجة إلى قسمين:

- الحماديون بالقلعة سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م ، والزيريون بالقيروان والمهدية[٥٩]، فكان للمدينة الشأن العظيم في حياة الدولة بحكم الموقع الهام الذي تمتعت به، والذي جعل قلعة القاعدة العسكرية القوية الضامنة للحفاظ للدفاع عن الدولة وضمان استمراريتها[٦٠]، فكانت بحق قاعدة بديلة لآشير بالمغرب الأوسط، تقف في وجه خصومهم التقليديين زناتة ، وخصومهم الجدد بني هلال، بحكم المواصفات المميزة لموقعها، لتمثل بدورها قاعدة دفاعية واقتصادية هامة بالمنطقة، فبناؤها على سفح

[٥٧] النويري، نهاية الأرب، ج٢٤، ص ص٣٠٢،٣٠٣.
[٥٨] القزويني، المصدر السابق، ص ٨.
[٥٩] المراكشي، المصدر السابق ، ص 174
[٦٠] المراكشي، نفسه، ص١٧٤,

جبل كيانة (تاقربوست) الشاهق(أنظر الصورة ٣)، أهلها للقيام بدور حيوي في حياة الدولة، بأفول فعالية دور آشير التي تحولت إلى ولاية من ولاياته. بعد أن عمق تحصينها بالأسوار وأبراج المراقبة، وساعدته على تحقيق الانتصارات المتتالية على بطون زناتة، وتحديه نشاطهم، ومن الوقوف في وجه الزيريين، الذين أرادوا استرجاع سيادتهم على المنطقة منذ تصدر "حماد" لمباشرة إنجاز حركة تمرده على إرادة ابن أخيه "باديس"، الذي طالبه بالتنازل عن بعض أعمال قسنطينة لصالح ابن هذا الأخير، فكانت المواجهة بينهما، ساهمت القلعة بشكل كبير في دعم "حماد" لنجاح تحصنه بها مدة ستة أشهر كاملة، مكنته بعدها من استقلاله نهائيا بالمغرب الأوسط[٦١].

واقتصاديا خلفت القلعة مدينة آشير، إذ أصبحت منطلقا لحركة تجارية حيوية بحكم موقعها المركزي الذي ضمن لها ربط أطرافها المختلفة، وتنوع أنشطتها الاقتصادية، والرخاء الكبير الذي سمح لها بتبؤ مكانة مرموقة بين بين القوى المماثلة لها، إذ عدت من أكثر بلدان المغرب غنى ،فكانت القوافل تصل إليها من كل الأقطار للتفريغ أو التزود بمختلف المحاصيل والصنائع التي تزخر بها القلعة، وقد أشار الإدريسي حيوية النشاط التجاري بها، لكثرة مواردها، فكانت " أثر قطرا، وأغزر خيرا"[٦٢]، وأكد البكري ذلك بالقول أنها تمصرت عند خراب القيروان، وهي في وقت زيارته لها مقصد التجار الذين وفدوا إليها من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب[٦٣].

فالقوة الاقتصادية للدولة استدعت تحصين العاصمة الأولى وغيرها من المدن المجاورة لها بصورة جيدة، اعتبارا لحالة أللاستقرار الدائم التي ميزت العلاقات الحمادية مع جيرانها، وسعيا منها للحفاظ على ثبات مداخيل الدولة ضمانا لديمومة وجودها، والاستعداد الحربي الكافي لمواجهة الأخطار المحتملة التي تهددها .

إلا أن الحملة الهلالية على المغرب الأوسط، والصعوبات التي لازمت محاولات احتواء الوافدين الجدد ضمن إطار الدولة حال دون الاحتفاظ بتلك القوة والمكانة، نظرا للتأثيرات التي خلفوها في أحواز القلعة، مما عجل بنقل مقر العاصمة من المنطقة الداخلية، إلى الساحلية، فكان إنشاء مدينة الناصرية[٦٤]، التي عرفت ببجاية، لتكون العاصمة الحمادية الثانية، والتي خططت بدورها على طراز عمراني حربي، يكفل للدولة حماية اكبر، وعمرا أطول.

---

[٦١] بورويبة، مدن مندثرة، ص ص٨٥،٨٤.

[٦٢] الإدريسي، المصدر السابق، ص ٨٦ .

[٦٣] البكري، المصدر السابق،ص ٤٩ .

[٦٤] الناصرية أو المنصورية، نسبة إلى مؤسسها، وأعظم الملوك الحماديين " الناصر بن علناس"، عنها أنظر: العبدري، الرحلة المغربية، ص٢٣؛ طويل، المرجع السابق، ص ٢٩٧ وما بعدها.

فكانت فكرة "ابن البعبع" عامل "تميم بن المعز" الزيري الذي أوحى لـ " الناصر ابن علناس" بأهمية الموقع الهام الذي أنشئت على أساسه، إذ لا يضمن صدّ الهلاليين فحسب، بل يتعداه إلى إشراف الدولة على واجهة البحرية هامة تمكنه من امتلاك المهدية وبلاد إفريقية بكاملها حيث خاطب "الناصر" بقوله :".. وأنا أشير عليك بما تملك به المهدية وغيرها، وقد عبرّت بجاية فرأيت فيها مرافق من صناعة وميناء وجميع ما يصلح لبناء مدينة، فاجعلها لك مدينة ، يكون دار ملكك، وتقربك من جميع بلاد إفريقية " [٦٥]، واختطت المدينة فعلا في حدود سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م على رأس جبل قوراية الشاهق، إذ أجمع أغلب الجغرافيين والمؤرخين على إبراز أهميته المتميزة، ومنهم الحموي الذي ذكر أنها بنيت في جبل شاهق، مستند في قبلته إلى جبال كانت قاعدة ملك بني حماد[٦٦]، إلى جانب امتداد يابسها داخل البحر مما سمح لها باحتلال مكانة عسكرية رائدة في المغرب الأوسط كله.

ونفس الأهمية يؤكدها صاحب كتاب الروض المعطار بقوله أن المدينة أنجزت على ضفة البحر، وهي على جرف حجر، ولها من جهة الشمال جبل سام صعب المرتقى يسمى أميسول[٦٧]. مما جعل الحماديين يستغلونها بشكل مكثف في رصد حركة المناوئين لهم، بحجم ما أنشئ من حصون وأبراج ورباطات حول المدينة، أو بوسائل اتصال مختلفة للربط بين العاصمة وولاياتها، أهلتهم لعرقلة الحملة الهلالية جنوبا، وضم ممتلكات الزيريين شرقا، وصدّ غارات زناتة غربا، ومواجهة هجمات النورمان عبر البحر شمالا.

كما أسست المدينة لواقع اقتصادي جديد، بفتح مسار إضافي للعلاقات التجارية الدولية، فإضافة إلى الطريق التقليدي (طريق السودان شرق – غرب) فتح طريق البحر، بين المغرب الإسلامي جنوبا وأوربا شمالا، وباقي مناطق العالم الأخرى، فعدت بذلك قطبا رئيسيا عالميا.

فذاعت بذلك شهرة الدولة وعاصمتها بكثافة السفن التي ترسو بمينائها من مختلف مناطق العالم، فقد أشار الكثير ممن زاروا المدينة من الرحالة والجغرافيين، على أهمية دورها بما عاينوه من حركية تجارية واسعة، منهم صاحب كتاب الاستبصار الذي هاله حجم حيوية النشاط بها، واصفا أنها أشرفت على مرسى عظيم تحط فيه سفن الروم من الشام، وسفن المسلمين من الإسكندرية، وسائر بلاد مصر، ومن بلاد اليمن والهند والصين وغيرها[٦٨]، وأيده الإدريسي بقوله أن المدينة في وقته عدتّ عين

---

[٦٥] النويري، المصدر السابق، ج٢٤، ص٢٣٤.

[٦٦] الحموي، معجم البلدان، ص٤٩٥.

[٦٧] الحميري، المصدر السابق، ص ص،٨٠.

[٦٨] مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق ونشر سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ط١٩٨٠، ص ص٢١،٢٠.

بلاد بني حماد، السفن منها مقلعة، والقوافل منحطة، تجلب إليها الأمتعة ا برا وبحرا، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجـار الصحراء وتجار المشرق[٦٩].

هذه الحركية الاقتصادية كانت من الدوافع الحقيقية للتوجه نحو تشييد التحصينات العسكرية في المنطقة التي أصبح ملكهم مقتضاها يضاهي ملك معاصريهم من الكيانات السياسية الأخرى، بما في ذلك الخليفة الفاطمي بالقاهرة على حد تعبير صاحب الاستبصار" حتى بقي صاحب بجاية في ملك شامخ، وعزّ باذخ يضاهي في ملكه صاحب مصر" [٧٠].

إضافة إلى ما لعبته مدن أخرى اكتسبها الحماديون من غيرهم، أو بنوها بأنفسهم، من أدوار في هذا المجال ومنها ثغور أقصى المملكة غربا، بدءا بمشارف وهران على ساحل البحر شمالا، وصولا إلى تلمسان وتيهرت جنوبا التي تمثل الحد الفاصل بين مواقع صنهاجة وزناتة ، وقسنطينة و بونة شرقا اللتين مثلتا الحد الفاصل بينهم وبين الزيريين شرقا.

فالتحصينات العسكرية بمختلف أشكالها، حددت المعالم الرئيسية لحدود الدولة التي امتدت من مشارف وهران مرورا بتنس غربا، وصولا إلى بونة والأوراس شرقا، ومن جزائر بني مزغنة وبجاية شمالا إلى وركلا (ورقلة) وبسكرة جنوبا، في ملك دام زمنيا مدة ١٤٢ سنة أي الفترة الممتدة ما بين ٤٠٥هـ/١٠١٦ م، إلى ٥٤٧ هـ/١١٥٢م. عرف المغرب الأوسط بعواصمه وأمصاره المختلفة خلالها أوج ازدهار له، إلى جانب الدور الاقتصادي والحضاري الذي قامت به القلعة وبجاية والذي يمثل صورة زاهية في تاريخ الدولة الحمادية.

تقييم لأداء المنشآت العسكرية الحمادية – الشواهد التاريخية:

ساهمت الاستحكامات الحمادية على اختلاف أنواعها وأشكالها في الدفاع عن حياض الدولة من التعرض للسقوط والانهيار منذ مرحلة التأسيس وما تالاها، فقد أثبتت الشواهد التاريخية أن رفض "حماد" لمطلب " باديس" بالتنازل عن جزء من ممتلكات إمارته لصالح ولي عهده "المنصور"، واعتبارا لجرأته وشجاعته بادر بمهاجمة إفريقية بالزحف على مدينة "باجة " التي دخلها عنوة في محاولة منه للقيام بمبادرة الهجوم حتى يكون في موقف أقوى عندما يباشر الزيريون محاولتهم لاسترجاع ما اقتطع من ملكهم، ووضع حد لتمرد "حماد" ومن والاه[٧١].

إذ فشلت محاولات التفاوض، وحل الخلاف وديا بين السلطة الزيرية ممثل أميرها باديس، والمبادر بالانفصال والاستقلال بالدولة الجديدة " حماد"، مما يؤكد طموح هذا الأخير وسعيه في الذهاب بحركته إلى أبعد حد ممكن، وإفشاله لكل مسعى يصب في

---

[٦٩] الإدريسي، المصدر السابق، ص٦٣.

[٧٠] مجهول، نفسه، ص١٣٠.

[٧١] ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٣٥١ ؛ زبيب نجيب، الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت ، لبنان، ط١٩٩٥ ، ص ٢٠٠.

اتجاه ثنيه عما عزم على تحقيقه، وهو ما جعل المؤرخين يعطونها صفة الحرب الأهلية نظرا لانتسابهما للأسرة الصنهاجية الواحدة[٧٢].

وقد فسر إصرار حماد على مبادرته تلك استنادا إلى قاعدته المحصنة "القلعة" في حالة تحقيق الزيريين للغلبة، فقد اتخذها قاعدة حربية رئيسية، ووظفها في المراحل الموالية لمباشرة حركته الانفصالية، إذ تكسرت على أسوارها كل محاولات اقتحامها، وهو ما ساهم بصورة فعالة في تثبيت دعائم دولته الفتية [٧٣].

فقد تولى الأمير "باديس" بنفسه مسؤولية الرد على عمه بتعبئة جيشه والسير انطلاقا من القيروان باتجاه القلعة ابتداء من ١١ ذي الحجة سنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤م ، مرورا برقادة ، وتاميديت ، والمحمدية (المسيلة) وصولا إلى مشارف عاصمة بني حماد التي استعصت عليه لحصانتها، فنفذ "حماد" مناورة حربية قضت بانسحابه غربا في محاولة منه لإبعاد الخطر عن عاصمته، واستدراج الجيش الزيري نحوه ، مع سعيه لكسب حلفاء يضمنون دعم حركته، فبلغ تعداد جيشه بين النظامي وغير النظامي، حوالي ثلاثين ألف جندي ، وخصمه بما يعادله متوليا قيادته بنفسه، ورغم الهزيمة التي لحقت بالحماديين، إلا أن انسحابه بما تبقى من جيشه واعتصامه بعاصمته المحصنة"القلعة"، ساهم في التمكين لدولته الفتية رغم الحصار الذي فرض عليه الجيش الزيري والذي دام حوالي ستة أشهر دون القدرة على اقتحامها لحصانتها [٧٤].

فأثبتت هذه المواجهة حنكة حماد العسكرية، وحسن اختياره لأماكن وكيفية إنجاز الاستحكامات الحربية التي تضمن حمايته ورعيته من أي خطر يتهدده وخلفاءه من بعده.

ونفس الدور أدته القلعة عشية الاجتياح الهلالي لأراضيه، حيث عجزوا على النيل منها واكتفوا بالاستقرار في أحوازها، إلى أن تمكن الأمير " الناصر بن علناس"(٤٥٤-٤٨١هـ/١٠٦٢-١٠٨٨م)، من استبدال القلعة بعاصمة جديدة سميت باسمه " الناصرية" أو "بجاية" في حدود سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م، لتحقيق نفس الغرض فاستعصت عليهم هي الأخرى نظرا لحصانتها وتعقد التضاريس المحيطة بها.

والنتيجة أن عاصمتا الدولة الحمادية القلعة وبجاية، مثلتا قاعدتين عسكريتين هامتين، ومدينتين بارزتين ذاع صيتهما سياسيا، واقتصاديا وثقافيا، إذ وقفتا حصنين منعين دعمت الأولى خيار حماد مؤسس الدولة عند ما همَّ بتنفيذ مشروعه الاستقلالي عن الدولة الأم، الدولة الزيرية، ومكنت الثانية الناصر بن علناس من الحفاظ على ملك أجداده، الذي تهددته أخطار عدة، خاصة ضغط القبائل الهلالية لأحوازها، حيث وقفت شامخة دون النيل منها، حتى وإن تمكن هؤلاء الوافدين أنفسهم من اجتياح

---

[٧٢] ابن عذاري، البيان ،ج١ ،ص ٢٦٢ .

[٧٣] المراكشي، المعجب ،ص ٢٠٦ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩ ،ص ٣١ ؛ بورويبة، مدن مندثرة، ص ص ٨٤ ، ٨٥.

[٧٤] ابن عذاري ، نفسه، ص ٢٦٣ .

مدينة القيروان ذات المكانة التاريخية العريقة، في حين استعصت القلعة على كل من حاول النيل منها، ودخولها، فبقيت تؤدي وظيفتها العسكرية التي أسست من أجلها، بل بقيت القبائل التي نزلت بضواحيها، مترصدة مستغلة لفيافيها والضياع المحيطة بها دون تمكنها من دخول المدينة نظرا لحصانتها، وصعوبة النيل منها.

وزيادة في الحرص من الجانب الحمادي، انتقلوا للاستقرار على ضفاف الساحل في خطوة كانت تهدف للمحافظة على استمرارية وجود دولتهم فكانت الناصرية بجاية وغيرها من الحواضر نموذجهم الأمثل في ذلك.

كما تفطن الحماديون إلى تبعات ما خلفوه من ورائهم، فأقاموا تحصينات متنوع في شكل أبراج وقلاع لرصد تحركات القبائل الهلالية وغيرها، على الطريق الرابط بين العاصمتين، وبالمقابل الوعي بالتحديات التي واجهتم على الضفة الأخرى من البحر، فقد عبأ النورمان كل قدراتهم خاصة العسكرية منها لوضع قدم سبق بسواحل المغربين الأوسط والأدنى.

واقعها الأثري الحالي، ومدى الاستفادة منه سياحيا:

في إطار المحافظة على التراث الذي لا تزال شواهده المادية قائمة إلى اليوم، في شكل عمران متنوع جمع بين ما هو مدني من بقايا القصور، والبرك المائية، والمساجد، أو حربي من أسوار وقلاع وأبراج مراقبة، صنفت الكثير من المواقع المذكورة ومنها العاصمة "القلعة" ضمن التراث الوطني سنة ١٩٦٨، والعالمي سنة ١٩٨٠.

كما صنفت مدينة أشير التي ورثوها عن الزيرين وطنيا سنة ١٩٩٥، وعلى نفس المنوال سارت بجاية وعيرها من المدن الحمادية الأخرى.

فقد عرفت الكثير من هذه المدن الأثرية عمليات ترميم وصيانة متتالية، سواء إبان الحقبة الاستعمارية أو بعد استقلال الجزائر، بهدف الحفاظ عليها واستغلالها بما يخدم التنمية السياحية المستدامة، ومن العمليات المستعجلة التي قمت بها الجزائر هي تصنيفها وطنيا وعالميا للحد من المخاطر التي تتهددها، وتهيئتها لتستغل كفضاءات سياحية تستغل على نطاق واسع، إن على المستوى الوطني أو الدولي.

وهذا ما نلمسه في مدينة مثل القلعة التي بنيَ بجوار قلعتها بالمدينة المستحدثة على أنقاضها وأطلالها متحفا يضم مجسمات وتحف أثرية تعود إلى العهد الحمادي، ونفس الشيء ينطبق ما تبقى من سور مدينة بجاية الذي ما زالت هياكله قائمة بالمدينة القديمة.

بل فعَلت الجزائر عملية الترويج لمعالمها السياحية، بتنظيم تظاهرة سنوية بعنوان: "شهر التراث" تمتد في الفترة ما بين ١٨أفريل و١٨ ماي، تصاحبها خرجات ميدانية تجمع الفئات الاجتماعية والفكرية المختلفة.

الخاتمة:

عدَ الجيش الحمادي ركيزة الدولة الأولى، فهو الذي حافظ على توطيد ركيزتها، وأسس نظامها، لذا كان الاهتمام كبيرا بانجاز أكبر قدر من الهياكل الحربية التي سمحت للدولة بضمان ديمومتها، فهذه المرافق التحصينية المتنوعة خاصة القلعة منها وقفت سدا منيعا ساهمت في طبع الدولة بميزة الدولة القوية التي قامت على أساس حربي، ذا أبعاد مدنية الهدف منها جعل الأحداث المتعاقبة في تسلسلها تصقل تجربتها، وتزيد من تراكم خبراتها مما زاد في قوتها وصلابتها، فدفعها للتفاعل الدائم مع مختلف الأحداث، رغم صعوبة التحديات التي واجهتها طيلة مدة سيادتها والتي قدرت بما يربو عن المائة والخمسين سنة(٤٠٥-٥٤٧هـ/١٠١٤-١١٥٢م) مما جعل غالبية المؤرخين يصنفونها ضمن أبرز الدول التي قامت في المغرب الأوسط خصوصا، والمغرب الإسلامي عموما.

مدينة أشير- منظر عام – (صورة ١)

معالم أشير الأثرية (صورة ٢)

التحصين الطبيعي لقلعة بني حماد
" جبل تاقربوست" (صورة ٣)

منارة جامع القلعة
– منظر أقرب – (صورة ٤)

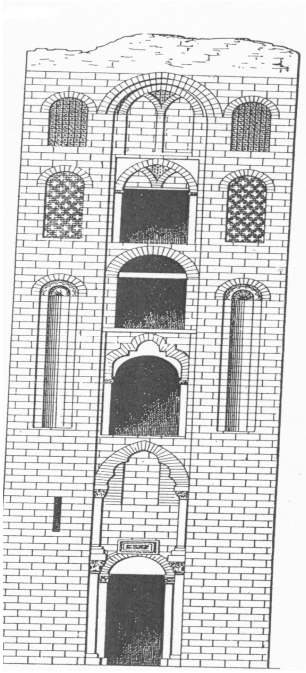

منارة جامع القلعة
– اتخذت برجا للمراقبة– (شكل١)

ما تبقى من برج المنار (القلعة) (صورة ٥)

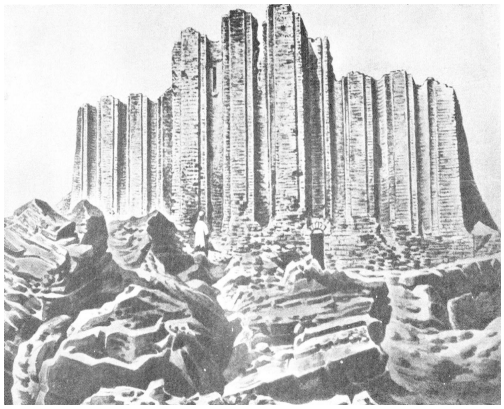

برج المنار (القلعة) (صورة ٦)

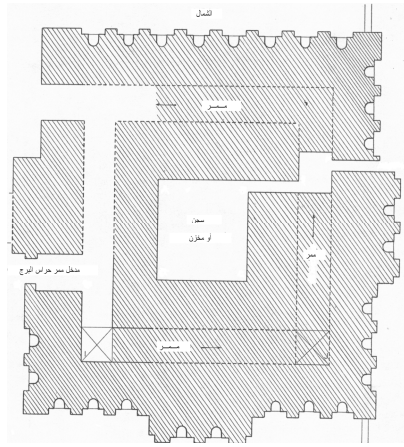

برج المنار- الطابق السفلي-(شكل٢)

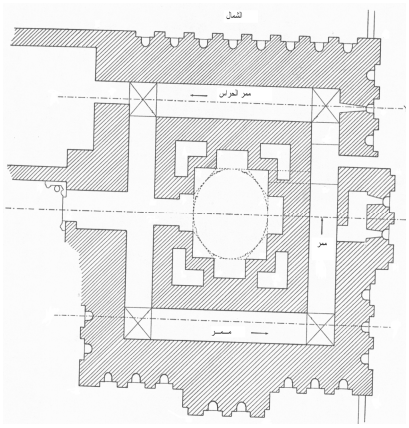

برج المنار- الطابق السفلي-(شكل٣)

سور مدينة الناصرية (بجاية)- (صورة ٧)

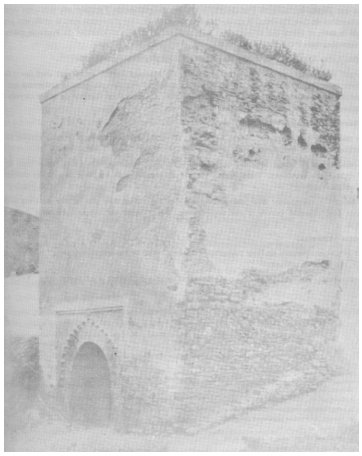

رباط تنس – على الواجهة البحرية-(صورة ٨)